# تحولات البنى التركيبية في المشاهد القرآنية
## دراسة في الأسلوب والدلالة

**مي محسن الحلفي و مراد رفيق البياري**
قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الملك فيصل
الأحساء، المملكة العربية السعودية

**الملخص**
حاولت هذه الدراسة أن تكشف عن دلالات البنى التركيبية لمشهدين في القرآن الكريم، هما: (مشهد الصيحة الواحدة)، و(مشهد إتيان الساعة بغتة)، ضمن مستويات أسلوبية للدراسة (هي: مستوى التردد الصوتي الدلالي، ومستوى التردد الدلالي الإفرادي والتركيبي، ومستوى التردد الدلالي التصويري) للوصول إلى غايات التكرار في التراكيب المنتخبة للتعبير عن هذين المشهدين، وبيان الأساليب اللغوية والتركيبية التي وظفها السياق القرآني لخدمة الدلالة المرجوة من التركيب.
وكان من أهم نتائج البحث أن التراكيب النحوية في المشهدين من أهم مُنتِجات الدلالة.

**الكلمات المفتاحية:** سورة الأنعام، سورة الحج، سورة الزخرف، سورة القمر، سورة يس، سورة يوسف.

**المقدمة**

الحمد لله الأول قبل الإنشاء، والآخر بعد فناء الأشياء، والصلاة والسلام على النبي وآله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فلقد اتسمت نصوص من القرآن الكريم بتردد ذي طابع تكراري، سواء أكان ذلك التردد في المشاهد القرآنية، أم في التراكيب، أم في تكرار العناصر الداخلة في هذه التراكيب. ومن المعلوم أنَّ كلام الله سبحانه يتنزه عما سمي بالتكرار غير المجدي؛ ذلك لأنَّ القرآن لم يستخدم التكرار إلا وسيلة لتثبيت المعنى في نفوس سامعيه، وإقراره في قلوبهم، كي يصبح عقيدة من عقائدهم. أضف إلى ذلك أن للتكرير أغراضًا بلاغية كثيرة: كالتأكيد، أو الاستلذاذ بالكلام، وتعظيم الأمر أو تهويله، أو زيادة التنبيه. والتكرير واحد من الأغراض البلاغية، التي يتحدث عنها علم المعاني تحت عنوان الإطناب، فلو دققنا النظر في فروعه لوجدنا أفانين القول تتشابه مع التكرار، فواحد منها يحمل هذا الاسم نفسه «التكرير»، والبقية تعتمد على زيادة في الكلام، أو تكرير له أو تفضيل، كذكر العام بعد الخاص وعكسه، والاحتراس والتتميم.

والمشاهد المنتخبة في بحثنا وجه من وجوه البلاغة القرآنية؛ فمن وجوه البلاغة العربية إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة، كما أنّ المشهد أو القصة المتكررة ترد في كل موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر، وتصاغ في قالب غير القالب، فلا يمل العقل من تكرارها، بل تتجدد فيه معان لا تحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى.

ولِما في التكرار من ترسيخ للأفكار في الأذهان، وبخاصة تلك الأذهان التي تتطلب مزيدًا من التكرار، بسبب ما عليه أصحابها من علو وعتو واستكبار ورفض كل ما خرج عما ألفوه واعتادوا عليه -كما وصفهم الخطاب القرآني- فقد لجأ الأسلوب القرآني إلى استخدام الأساليب البلاغية والبيانية، للتأثير في نفوسهم، ومحاولة تذكيرهم بشططهم، فكان هذا التكرار والاسترجاع في المشاهد والتراكيب الواصفة ليوم القيامة وأهوالها وشدة العذاب لهؤلاء المعاندين المنكرين لها.

إنَّ من تنوع طرائق عرض الموضوعات في القرآن الكريم أنّه يعرض القصة ملخصة حينًا ثم يفصلها، وحينًا آخر يبيِّن العاقبة والمغزى من مضمونها، ثم يبدأ بالتفصيل، وقد يبدأ بها مباشرة بلا مقدمات، أو يقدمها كمشاهد حية نابضة تحدث أمامنا، وفضلاً عن ذلك فالنص القرآني يتميز ببراعة الانتقال من موقف لآخر، وتجاوز ما لا حاجة إليه، وترك الذهن يستوحي من هذه المواقف الأحداث التي جرت، أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم خلا من التكرار والتماثل، فهذا الأستاذ محمد قطب يقول: «لا يوجد نصان متماثلان في القرآن الكريم كله، إنّما يوجد تشابه فقط دون تماثل، تشابه كذلك الذي قد يوجد بين الإخوة والأقارب، لكنه ليس تكرارًا بحال من الأحوال»[1]، ونرى أيضًا الشيخ عبد الرحمن الميداني، يقول: «على متدبر كلام الله أن يبحث في كل نص يبدو له أنّه من النصوص المكررة في

(1) قطب، التصوير الفني، ص 34.

القرآن؛ ليكتشف غرض التكرار مختلفًا ولو بعض الشيء، ولو بكلمة، أو حرف في كلمة؛ فكثير من النصوص التي يتوهم فيها التكرار هي ليست في الحقيقة مكررة، ولكنها متكاملة يؤدي بعضها من المعاني المرادة ما لا يؤديه البعض الآخر»[1].

فقصص ومشاهد كمثال للتكرار أو التنويع تأتي في كل مرة في سياق مختلف عن غيره، له هدف خاص يُساق له المشهد، أو القصة؛ لتظهر منها الأجزاء التي تناسب هذا الهدف المحدد، وكل سياق تأتي فيه لا تتشابه ألفاظها وأجزاؤها مع القصة الثانية في السياق الثاني، بل لا بد من تقديم لِكَلِمةٍ وتأخير لأخرى، أو ذكرٍ لشيء في موقفٍ، وعدم ذكره في المرة الثانية، وهكذا حسب مقتضيات المعنى والسياق، ووفق أغراض بلاغية أصيلة.

وأخيرًا ففي دراسة مثل دراستنا هذه، فإنّ النزوع إلى أية دراسة تركيبية ولا سيما في النص القرآني يقتضي منا عملاً أسلوبيًّا متكاملاً، وذلك بالتعامل مع النص شكلاً ومضمونًا، أي دالاً ومدلولاً، من منطلق مستويات هي: (التردد الصوتي الدلالي)، و(التردد الإفرادي والتركيبي الدلالي)، و(التردد الصوري الدلالي)، في إطار مشهدين هما: (مشهد الصيحة الواحدة)، و(مشهد إتيان الساعة بغتة)، ضمن التراكيب الآتية:

**المشهد الأول: (مشهد الصيحة الواحدة)**

1. ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (يس: 29).
2. ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (يس: 49).
3. ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (يس: 53).
4. ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (ص: 15).
5. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ (القمر: 31).

**المشهد الثاني: (مشهد إتيان الساعة بغتة)**

1. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ (الأنعام: 31).
2. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: 187).
3. ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (يوسف: 107).
4. ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ (الحج: 55).
5. ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (الزخرف: 66).
6. ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ (محمد: 18).

**أولا: مستوى التردد الصوتي الدلالي**

يرى علماء اللغة العربية وفقهاؤها أنّ اللغة العربية شاعرية بطبيعتها، وأنّها من أكثر لغات العالم انسجامًا مع الشعر والفن، وأكثرها تلبية للأحاسيس الإنسانية، وأقدرها توافقًا مع مقاييس الجمال.

ويمكن لنا أن نحدد جمالية اللغة العربية وشاعريتها في مظاهر ثلاثة[2]:

أولاً: أصوات الحروف، فشاعرية اللغة التي تظهر في تقسيم حروفها، تتجلى في استخدامها في جهاز النطق الحسي، الذي أدى إلى الامتنان في الإيقاع الموسيقي.

ثانيًا: الشاعرية في المفردات، حيث تظهر الموسيقية في المفردات من جهتين: من جهة التركيب الفني لحروف الكلمة، وجهة المعاني التي تدل عليها.

ثالثًا: تركيب العبارات؛ فالعبارة تستمد دلالتها في العمل الأدبي من الدلالات اللغوية للألفاظ المفردة، ومن الدلالة المعنوية الناشئة عن اجتماع الألفاظ وترتيبها في نسق معين، ثم من الإيقاع الموسيقي الناشئ من مجموعة إيقاعات الألفاظ متناغمًا بعضها ببعض.

(1) الميداني، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، ص 201.

(2) ينظر: الخالدي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ص 17.

وقد جاء النظم للغة القرآن الكريم بنسق عال باهر خال من الخلل واللحن، وفي هذا المبحث سنحاول الكشف عن بعض أسرار هذه الخصائص الصوتية، والأسلوبية الكامنة في النص الكريم في المشهدين اللذين حددتهما الدارسة؛ حيث سندرس التكرار الصوتي، في مشهد الصيحة الواحدة أولاً، وفي مشهد إتيان الساعة بغتة ثانيًا، ومن ثم التوازي الصوتي، والفاصلة القرآنية في المشهدين:

**1. التكرار الصوتي:**

تتخذ اللغة القرآنية في بعض الأحيان من الأصوات المتكررة وسيلة بلاغية لتصوير موقف ما وتجسيمه، والإيحاء بما يدل عليه، معتمدة في ذلك على ما تتسم به الألفاظ من خصائص صوتية، وما تشيعه بجرسها الصوتي من نغم يسهم في إبراز المعنى المراد باقتدار رائع، وإعجاز معجز، ولو استقصينا ما جاء من تكرار في بعض أصوات الألفاظ على صعيد المستوى المتضمن المشهد الأول لألفينا طائفة من العناصر اللفظية فيها بتكرار صوتي داخل النسق التركيبي، وهي على التوالي: «الهمزة، والألف، والنون، والميم، والتاء، والواو»، فـ «الهمزة»: صوت حنجري شديد (انفجاري)، ورد في مشاهد الصيحة الواحدة (11) مرة في الألفاظ «إن، إلا، فإذا، تأخذهم، إن.. إلخ»، «وهو كما نعلم صوت لا هو بالمجهور، ولا هو بالمهموس، يحتاج إلى جهد عضلي قد يزيد على ما يحتاج إليه أي صوت آخر، مما يجعلنا نعد الهمزة أشق الأصوات»[1]، والصوت الآخر الأكثر استعمالاً هو «الألف»: وهو أحد أصوات المد، والمصوتات المدية، التي توصف بأنّها مجهورة مع اندفاع مجرى الهواء في الحلق حرًّا طليقًا إلى خارج الفم[2]، أمّا «النون»: وهو صوت مجهور متوسط بين الشدة، والرخاوة، فقد ورد في «كانت، خامدون، صيحةً، واحدةً، محضرون.. إلخ». والصوت الآخر هو «التاء»: وهو «صوت شديد مهموس»[3].

نلحظ من كل ما تقدم أنَّ هذه الأصوات تكاد تتصف بصفة مشتركة هي الشِّدة، ولو تحرينا الغاية من وراء هذا التكرار، لوجدنا أنّ انتظام الأصوات وسبكها ببعضها في أنساق معينة يوحي بمعان تعزز الدلالة المراد إبرازها بقصدية كاملة، لأنّ كلام الله سبحانه وتعالى تنزه أن يخلو كلامه من القصد، وهذه القصدية إنّما فرضها المعنى السياقي للآي، إذن آيات هذا المشهد -الصيحة الواحدة- جميعها تعطي مدلولاً واحدًا: هو موقف الكافرين عند مجيء الصيحة، فالخطاب موجه لفئة محددة وواضحة، هم الكافرون فقط، والصيحة الواحدة يقابلها مشاهد متعددة ومتحولة، هي أوضاع الكفار وحالهم عند مجيء الصيحة الواحدة، وتحيل إلى نهاية واحدة، هي القضاء عليهم. فاحتاجت هذه المشاهد إلى الشدة والقوة وهو ما عبر عنه التكرار الصوتي.

ولأصوات المد وضعها الخاص في التعبير عن المعنى المراد، لأنّ هذه الأصوات الواردة في تضاعيف الأنساق التركيبية لهذا المستوى جاءت متسقة ومنسجمة مع الجو العام لسياق هذا المشهد، بما تحمله هذه المصوتات من جهر ووضوح سمعي دل على إعلان موقف الكفار من مجيء الصيحة؛ فكانوا يتقلبون بين «لاءٍ ومخاصم»، دون اكتراثٍ أو تفكير بموعد مجيء عقاب الله المتمثل بالصيحة الواحدة، وكان موقفهم واضحًا وصريحًا مثل المصوتات الفونيمية التي وجهت النسق.

وإذا ما انتقلنا إلى التكرار الصوتي في المشهد الثاني «مشهد إتيان الساعة بغتة»، سنجده زاخرًا بالتكرارات الصوتية داخل النسق الواحد، أو في الأنساق المختلفة. والآيات في هذا المستوى جلها من السور المكية الحافلة بجو من الترهيب والتهويل، لما تضمنته من تصوير لوقوع الساعة بصورة مباغتة، كما أنّ السمة الغالبة على لغة السور المكية مثلما ذكرنا سابقًا هي الشدة والحزم، ولمَّا كان ذلك كذلك فلابد من استعمال خاص للأصوات؛ كي يحقق نوعًا من التوازن بين الدلالتين الصوتية والمعنوية في الآي.

وقد جاء التكرار الصوتي على صورتين: الأول التكرار الصوتي في النسق التركيبي، ونجد فيه تتابعًا بين صوتيّ الهمزة، والتاء، فضلاً عن المصوتات، كما في «إذا، جاءتهم، أخذناهم، بغتة، تأتيهم.. إلخ»، فصوت الهمزة انسجم والجو العام للآيات؛ وذلك لِما اتصف به من سمات اتسقت مع صورة مجيء الساعة بغتة، ووقوع العذاب

(1) أنيس، الأصوات اللغوية، ص 78.
(2) ينظر: الزيدي، فقه اللغة العربية، ص 446.
(3) أنيس، الأصوات اللغوية، ص 56.

السريع مع ما فيه من شدة وهول وذهول.

وإنّ لانفجارية «التاء» السريعة في النطق وتكرارها دلالة تحكي المعنى الذي سيق في الآي، فقد أشعرتنا بالقوة الانفجارية السريعة التي تحصل عند قدوم الساعة المباغتة، وحصول الانقلاب الكوني، ولم يكن صوت «التاء» وحده المشعر بذلك فحسب، إنّما لمجاورتها أصواتًا تعاضدت معها؛ ففي لفظة «جاءتهم» تلازم الصوتان «الهمزة»، و«التاء»، فاتفقا بالانفجارية الموحية بالمعنى العام للسياق.

أمّا التكرار الآخر فهو التكرار الصوتي الحاصل في اللفظة الواحدة؛ فقد يأتي تتابع الصوت من جنس واحد، كما في لفظة «بغتة» التي تكرر فيها صوت التاء مرتين، مما أضاف إحساسًا بشدة الأحداث المفاجئة لهؤلاء الناس؛ إذ إنّه «في نطق «التاء» يحصل اندفاع مفاجئ للهواء المحبوس نتيجة التقاء اللسان بأصول الثنايا عند النطق به»[1]، ومثله صوت «الباء»، فينطق حينما يتم التقاء الشفتين التقاءً تامًّا، بحيث يندفع الهواء محدثًا صوتًا انفجاريًّا هو الباء[2].

هذان الصوتان اشتركا بالشدة، وعبرا عن المعنى الظاهر لِلَفظة "بغتة"، فَيُشَمُّ منهما رائحة الخفاء التي انسجمت مع ما في البغت من دلالة موحية بالخفية في لحظة الأخذ المفاجئ للناس، فيغلبهم دون أن يخطر على بال أحدهم، فيقعون مبهوتين دهشة بهذا الأخذ المباغت الحاصل بلمح البصر.

وقد دل على هذا المعنى آية أخرى لم يذكر فيها لفظ الساعة صراحة، وإنّما دل عليها السياق ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (الأنبياء: 40)، حيث نجد أنّ الدلالة الصوتية «للباء، والتاء» قد ارتبطت في لفظة «تبهتهم» بالدلالة اللغوية لهذه اللفظة، فشدة هذين الصوتين انسجمت مع شدة حيرتهم ودهشتهم حين غلبتهم الساعة فانقطع الكلام لقوة ذلك، ولا ننسى ما في صوت «الهاء» من دلالة معبرة عن المعنى؛ فـ «الهاء»، صوت مهموس رخو[3]، وهاتان الصفتان متناسبتان والحالة المذهلة التي أصابت القوم الذين حل بهم العذاب فجأة فذهلوا لذلك، وانقطع الكلام أو خفت، فيصبح الحال كما وصفهم سبحانه، بقوله: ﴿فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾ (طه: 108)، فيتبين من كل ذلك: أنَّ السياق القرآني استخدم الأصوات اللغوية بما يوضح المضمون بدقة متناهية، مما يغني الدلالة التي من أجلها جعلت هذه المعاني في تلك التراكيب.

(1) أنيس، الأصوات اللغوية، ص 56.
(2) ينظر: المصدر نفسه، ص 43.
(3) ينظر: الزيدي، فقه اللغة العربية، ص 436.

## 2. التوازي الصوتي والفاصلة القرآنية:

### أولاً: التوازي

«يعد التوازي قسمًا من أقسام السجع»[4]، وهو أن يُراعى في الكلمتين الأخيرتين من القرينتين الوزن مع اتفاق الحرف الأخير منهما[5].

و«قد اتفق العلماء على أنّ التوازي اتفاق الفاصلتين الأخيرتين في الوزن والتقفية، أمّا حشو البيت فاختلفوا فيه فمنهم من عده توازيًا ومنهم من عده ترصيعًا، كما نجد أنّهم قد استعملوا التوازي وصفًا للألفاظ المركبة»[6].

أمّا التوازي في الدراسات الحديثة فقد شهد تطورًا في المفهوم، واتساعًا، وأصبحت القافية والسجع يكونان جزءًا منه، وعده بعضهم قانونًا من قوانين الإيقاع[7]، فالتوازي عندهم «تعادل فقرات الكلام وجمله كما في النثر المزدوج، أو في شطري البيت الواحد من حيث الإيقاع والوزن، وأن يستمر هذا التوازي في النص كله كالذي نجده في القصيدة الشعرية؛ حيث يتكرر إيقاع كل شطر في كل بيت منها، ويستمر حتى نهايتها، بحيث يكون الجناح الأيمن من القصيدة يوازي جناحها الأيسر من حيث الوزن والإيقاع»[8]، ومن مواطن إيقاع التراكيب المتوازية التي تقوم بدور المنبه ما جاء في المشهد الأول؛ حيث تتضح البنى المتوازية في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ (يس: 29،

(4) العسكري، كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، ص 287، وينظر: ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ص 398–399، والنويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ص 104– 105.
(5) المصادر نفسها، الصفحات نفسها.
(6) العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة العربية، ص 8.
(7) ينظر: الحسناوي، الفاصلة في القرآن، ص 233 وما بعدها، وينظر: إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنة، ص 221 وما بعدها.
(8) ناجي، الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، ص 59.

53)، فهـي تـوازي قولـه تعـالى: ﴿ مَـا يَنظُـرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ (يس: 49)، وتـوازي قولـه تعـالى: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاَءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ (ص: 15).

إنّ تـردد هـذا المشـهد أظهـر التـوازي بشـكل واضـح، وأثـار المتلقـي لِما سـوف يـؤول إليـه حـال الكافـر بهـذه الصيحـة الواحـدة، بالرغـم مـن أنّ هـذه المشـاهد تـرددت عـلى مسـتوى السـورة الواحـدة والسـور الأخـرى، مما خلق نوعًـا مـن الإيقـاع يمكـن أن نسـميه: «إيقـاع السـياق»، وكأن الإيقـاع جـاء عـلى مراحـل متباعـدة ومتقاربـة؛ ليجعـل المتلقـي يسـتمر في حالـة الاندمـاج الصـوتي الإيقاعـي المندغـم بالـدلالي، والإحسـاس بكـون القـرآن الكريـم نصًّـا، أو سـورة واحـدة متكاملـة.

فالتركيـب أعـلاه (إن كانـت إلا // مـا ينظرون إلا // إن كانـت إلا // مـا ينظر هـؤلاء إلا)، مع المطابقة التامـة عـلى التـوازي التكـراري في جزئهـا الثـاني وهـو «صيحـة واحـدة»، جـاء في المشـاهد الثلاثـة الأولى في سـورة «يـس»، أمّـا المشـهد الرابـع فـكان مـن سـورة «ص» «بـما تحملـه هـذه السـورة المكيـة مـن فواصـل قصـيرة، وإيقاعـات سريعـة، طبعهـا بطابـع خـاص؛ إذ تتلاحـق إيقاعاتهـا، وتـدق عـلى الحـس دقـات متواليـة، يعمـل عـلى مضاعفـة أثرهـا بـما تحملـه معهـا مـن الصـور والظـلال التـي تخلعهـا المشـاهد المتتابعـة مـن بـدء السـورة إلى نهايتهـا، وهـي متنوعـة وموحيـة وعميقـة الآثـار»[1]، فهـذه السرعـة مـا هـي إلا بيـان أمـر مهـول تنبيهـي اسـتلزم إيقاعًـا واحـدًا، وجملـة واحـدة وهـو إعـلان يـوم البعـث والحسـاب، ومما لا شـك فيـه لا يوجـد يـوم أقـوى وأدعـى للخـوف مـن هـذا اليـوم.

وإذا انتقلنـا إلى المشـهد الثـاني «مشـهد إتيان السـاعة بغتـة»، وجدنـا التـوازي يُثبِـتُ لنـا مـرة أخـرى أنّ النـص القـرآني سـورة واحـدة بلفـظ متشـابه، ومعنـى إضـافي، ويمكـن عـرض هـذه المشـاهد كالآتي:

﴿ حَتَّـى إِذَا جَاءَتْهُـمُ السَّـاعَةُ بَغْتَـةً ﴾ (الأنعـام: 31)، ﴿ تَأْتِيَهُـمُ السَّـاعَةُ بَغْتَـةً ﴾ (يوسـف: 107)، ﴿ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ (الحج: 55)، ﴿ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ (الزخرف: 66)، ﴿ إِلاَّ السَّـاعَةَ أَن تَأْتِيَهُـم بَغْتَـةً ﴾ (محمـد: 18).

إنّ المشـهد في سـورة الأنعـام يـوازي صوتيًّا المشـهد في سـورة يوسـف، مـع تـوازٍ واتفـاق كامـل بـين المشـهدين في سـورة يوسـف وسـورة الحـج، ثـم إنَّ الاختـلاف بـين لفظـة ﴿ جَاءَتْهُـمُ ﴾ في سـورة الأنعـام ولفظـة ﴿ تَأْتِيَهُـمُ ﴾ في سـورة يوسـف مـا هـو إلا فـرق حـرفي لم يؤثـر عـلى وزن الألفـاظ. أمَّـا المشـهدان في سـورتي الزخـرف وسـورة محمـد فقـد تكامـلا صوتيًّـا، وهكـذا أخـذ الإيقـاع يمتـد مـن سـورة إلى أخـرى مُذكـرًا المتلقـي بهـذه السـاعة المباغتـة.

أمّـا في سـورة الأعـراف ﴿ لاَ تَأْتِيكُـمْ إِلاَّ بَغْتَـةً ﴾ (آيـة 187) فقـد جـاء المشـهد متوازيًـا دلاليًّـا أكثـر منـه صوتيًّـا؛ لأنّ جملـة «إتيـان السـاعة»، جـاءت بـذات الألفـاظ لكـن بتركيـب يختلـف قليـلاً عـن المشـاهد الأخـرى.

### ثانيًا: الفاصلة القرآنية

للفاصلـة دور في دلالـة المشـهد القـرآني، فقـد عُـدت جـزءًا أو نوعًـا مـن التـوازي، كـما مـر بنـا سـابقًا، ويمكـن تعريـف الفاصلـة القرآنيـة: بأنّهـا حـروف متشـاكلة في المقاطـع توجـب حسـن إفهـام المعـاني.

وتـأتي الفواصـل في القـرآن الكريـم «مسـتقرة في قرارهـا، مطمئنـة في موضعهـا، غـير نافـرة، ولا قلقـة، يتعلـق معناهـا بمعنـى الآيـة كلهـا تعلقًـا تامًّـا، بحيـث لـو طُرحـت لاختـل المعنـى واضطـرب الفهـم؛ فهـي تـؤدي في مكانهـا جـزءًا مـن معنـى الآيـة»[2].

وبتأمـل الفواصـل في المشـهدين المعنيـين في الدراسـة نجدهـا متسـقة ومتوافقـة مـع السـياق الـذي تطلبـه؛ لأن الفاصلـة تـأتي خدمـة للمعـاني، فهـي تابعـة لهـا.

ففـي المشـهد الأول «مشـهد الصيحـة الواحـدة»: جـاءت مقاطـع الفواصـل عـلى النحـو الآتي:

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| 1- خامدون : | خا | م | دون | |
| مقطع طويل مفتوح + مقطع قصير مفتوح + مقطع طويل مزيد | | | | |
| 2- يخصّمون : | يَـ | خصـ | صـ | مون |
| مقطع قصير مفتوح + مقطع طويل مغلق + مقطع قصير مفتوح + مقطع طويل مزيد | | | | |
| 3- محضرون : | محـ | ضـ | رون | |
| مقطع طويل مغلق + مقطع قصير مفتوح + مقطع طويل مزيد | | | | |
| 4- فواق : | فـ | وا | قن | |
| مقطع قصير مفتوح + مقطع طويل مفتوح + مقطع طويل مفتوح | | | | |
| 5- المحتظر : | الـ | محـ | تـ | ظر |
| مقطع طويل مغلق + مقطع طويل مغلق + مقطع قصير مفتوح + مقطع طويل مفتوح | | | | |

(1) ينظر: قطب، في ظلال القرآن، ج 23، ص 2140.

(2) شرشر، البناء الصوتي في البيان القرآني، ص 80.

انقسمت مقاطع الفواصل في هذا المشهد إلى طويلة وقصيرة ومزيدة، وكل منها عبر عن المعنى في السياق تعبيرًا دقيقًا، ولم يكن اختيار الفواصل ذات مقاطع محددة ولا عدد واحد، إنّما جاء بحسب ما يحتاج إليه المعنى؛ فالفواصل ذات المقاطع الطويلة جاءت أكثر ورودًا من غيرها، وربما يحيلنا هذا الأمر إلى سياق الآيات التي تخاطب فئة تكاد تكون متشابهة ومتماثلة في الكفر والعتو والعصيان.

أما المشهد الثاني -إتيان الساعة بغتة- فجاءت مقاطع الفواصل على النحو الآتي: -

| | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|
| 1- يزرون : | يـ | / | ز | / | رون |
| مقطع قصير مفتوح + مقطع قصير مفتوح + مقطع طويل مزيد | | | | | |
| 2- لا يشعرون : | لا | / | يشـ | / | عـ / رون |
| مقطع طويل مفتوح + مقطع طويل مغلق + مقطع قصير مفتوح + مقطع طويل مزيد | | | | | |
| 3- عقيم : | عـ | / | قيـ | / | م |
| مقطع قصير مفتوح + مقطع طويل مفتوح + مقطع قصير مفتوح | | | | | |
| 4- لا يشعرون : | لا | / | يشـ | / | عـ / رون |
| مقطع طويل مفتوح + مقطع طويل مغلق + مقطع قصير مفتوح + مقطع طويل مزيد | | | | | |
| 5- ذكراهم : | ذكـ | / | را | / | هم |
| مقطع طويل مغلق + مقطع طويل مفتوح + مقطع طويل مفتوح | | | | | |

جاءت هذه المشاهد بفواصل طويلة أيضًا لتؤدي معنى تتم به الفائدة، ويطلبه السياق.

مما تقدم يمكن القول: إنّ الفاصلة القرآنية لها وظيفتان: الأولى وظيفة رئيسة معنوية يحتملها السياق، ووظيفة أخرى لفظية تتصل بجمال الإيقاع، ولا يجوز أن نقول: إنّ الفاصلة جاءت لتتفق مع رؤوس الآي الأخرى فقط دون الانتباه للغرض المعنوي[1].

**ثانيًا: مستوى التردد الدلالي الإفرادي والتركيبي**

يعد هذا المستوى أحد الأركان التي تقوم عليها الدراسات الحديثة، لِما له من أثر كبير في تحديد دلالات الألفاظ بحسب صيغها المتغايرة، وما يتبع ذلك من تغاير في المعنى، يقول الزركشي: «إنّ اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان، ثم نقل إلى وزن آخر أعلى منه، فلا بدّ أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً؛ لأنّ الألفاظ أدلة على المعاني»[2]، وقد أشار بعض الباحثين إلى أنّ العلماء اكتفوا بسرد الصيغ دون التعرض لأي قضية تتعلق بقيمها اللغوية أو النحوية، أو الصرفية، وما يترتب على استعمال هذه الصيغ من وظائف، وقيم نحوية في الجمل والعبارات، فضلاً عن بعدها عن معانيها الصرفية «فكانوا يمرون بها عرضًا»[3]، أمّا الأسلوبيون فقد ربطوا اختلاف الألفاظ الواردة في النصوص بقضية العدول، التي تعد من الأساسيات في الدراسات الأسلوبية، ولا سيما القرآنية، إذ لم يُؤثر القرآن صيغة دون أخرى إلا لغاية مقصودة، وهي أنّ صيغة ما قد تؤدي معنى يفيد منه السياق ويتناسب معه، لا تؤديه الصيغة الأخرى التي إذا حلت محلها لم تؤدِ الغرض المطلوب، فكل صيغة استخدمها القرآن الكريم دون غيرها إنّما جاءت خدمة للمعنى القرآني المراد[4].

والمهم في هذا المقام ملاحظة العدولات في الصيغ والتراكيب التي تعاقبت في الأساليب القرآنية، ومحاولة الوقوف عند الغاية من إيثار بعض الأبنية دون غيرها. ففي مشهد (الصيحة الواحدة)، نجد قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (يس: 29)، «أنَّ أصل الكلام «إن كان شيءٌ إلا صيحة واحدة»، فكان الأصل أن يُذكّر، لكنه أنّث لما بعده من المفسر وهو «الصيحة»، وقوله «واحدة» تأكيد لكون الأمر هينًا عنده، وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ إشارة إلى سرعة الهلاك، فإنَّ خمودهم كامن من الصيحة في وقتها لم يتأخر، ووَصْفُهُم بالخمود في غاية الحسن؛ لأنّ الحي فيه الحرارة الغريزية، فكلما كانت الحرارة أوفر كانت القوة الغضبية والشهوانية أتم»[5].

ويجوز أن تكون لفظة «الخمود» بمعنى البرودة والسكون؛ فالروح لفزعها عند الصيحة تندفع إلى الباطن دفعة واحدة، ثم تنحصر فتنطفئ الحرارة الغريزية لانحصارها، ولعل في العدول عن «هامدون» إلى ﴿خَامِدُونَ﴾ رمزًا خفيًّا للبعث بعد الموت[6].

أمّا فيما يخص قوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (يس:

(1) عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن، ص 123.
(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 3، ص 34.
(3) الحلة، لغة القرآن في جزء عم، ص 21.
(4) ينظر في هذا الموضوع: القرعان، دراسات أسلوبية في النص القرآني، ص 24 وما بعدها.
(5) ينظر: ابن عادل، تفسير ابن عادل المسمى «اللباب في علوم الكتاب»، ج 16، ص 201، وينظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج 4، ص 15.
(6) الصافي، الجدول في إعراب القرآن، ج 23، ص 6.

49)، و﴿وَمَا يَنظُرُ هَـؤُلاَءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ (ص: 15)، «قال ابن عباس: ما ينتظرون إلاّ الصيحة المعلومة يريد النفخة الأولى. والتنكير للتكثير، فإن قيل: هم ما كانوا ينتظرون بل كانوا يجزمون بعدمها. فالجواب: المراد بالانتظار فعلهم؛ لأنّهم كانوا يفعلون ما يستحق به فاعله الهوان وتعجيل العذاب وتقريب الساعة لولا حكم الله وعلمه بأنهم لا يفوتونه»[1].

وقد ورد أنّ في ذكر الصيحة أمورًا تدل على عظمتها وهي: «التنكير». و﴿واحدة﴾ أي: لا يحتاج معها إلى ثانية، و﴿تأخذهم﴾ أي: تعمهم بالأخذ، وتصل إلى من في الأرض مشارقها ومغاربها[2].

ولفظة ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (يس: 49)، «أصلها (يختصمون) فسكنت التاء، وأدغمت في الصاد ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين، وقرئ بكسر الياء للإتباع، وبفتح الخاء على إلقاء حركة التاء عليه[3].

وفي قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (يس: 53) لو قلنا: «فإذا هم لدينا محضرون»، فإن السياق الدلالي واضح وجلي، لكن مجيء لفظة ﴿جميع﴾، أفادت فضلا عن التوكيد دلالة الشمول، وأن الإحضار محيط بهم لا يفلت منه أحد.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَـؤُلاَءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ (ص: 15)، نلحظ مجيء السياق القرآني بلفظة (ما ينظر)، بدلاً من (لا يرى)، ولو دققنا النظر في كل من «ينظر» و«يرى» لوجدنا أنه على الرغم من ورود «ينظر» قليلاً في السياق القرآني إذ جاءت ثلاث مرات في السور (آل عمران: 77)، و(يونس: 43)، و(النبأ: 40)، وباقي السور جاءت لفظة «يرى»، فلفظة «ينظر» جاءت في سياق مخاطبة الكفار والظالمين أنفسهم، وهذا ما وجدناه في الآيات السابقة الذكر، يقول ابن منظور: «وإذا قلت نظرت في الأمر احتمل أن يكون تفكرًا فيه وتدبرًا بالقلب»[4]، «وتقول العرب أنظرني أي انتظرني قليلاً ومنه قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: الآيتان 22، 23)، فيقال: نَضرت بنعيم الجنة، والنظر إلى ربها، وقال الله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ (المطففين: 24)، ومن يقول: إنّ معنى قوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ يعني منتظرة فقد أخطأ؛ لأن العرب لا تقول نظرت إلى الشيء بمعنى انتظرته إنّما تقول نظرت فلانًا أي انتظرته»[5]، ومما تقدم فإن الإحساس بالزمن، أو الانتظار هو ما قصده السياق القرآني وليس الرؤية، أو النظر الحقيقي.

وفي سياق آخر نجد قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ (القمر: 31)، فلفظة ﴿الْمُحْتَظِرِ﴾، وهي اسم فاعل، أراد بها السياق تشبيه الكفار وحالهم بعد الصيحة الواحدة التي يبعثها، نتيجة لما قاموا به من معصية وعقر للناقة، كما هو حال القصة في السورة، وتعني هذه اللفظة «الحظيرة» وهو المكان الذي يُبنى من الأعواد الجافة ويكون مأوى للغنم والقطيع، ولكنها لم تأت بهذه الصياغة، بل جاءت بصيغتها الحالية ليعكس إهانة هؤلاء الكافرين، بجانب لفظة أخرى هي ﴿هَشِيمِ﴾ وتعني الأعواد الجافة الناشفة اليابسة حين تتحطّم وتصبح متناثرة خالية الملامح[6]، فيقوم صاحب الحظيرة بجمع الهشيم لماشيته لتأكله وتنام عليه وفيه، وهي تحقير لهؤلاء المتعالين المتكبرين فهم علف وهشيم للدواب.

وقد ألفينا في النصوص طائفة من الأسماء والأفعال قد عدل عنها إلى غيرها، من ذلك استعمال السياق القرآني للفعل «جاء» تارة و«أتى» تارة أخرى[7].

إن معنى «أتى» من الإتيان وهو المجيء بسهولة ويسر، ويقال للسيل المار على وجهه «أتيٌّ»[8]، إشارة إلى معنى المجيء بسرعة، وكل من الفعلين «جاء»، و«أتى» متعدٍ إلى مفعوله مباشرة، والمجيء الإتيان أيضًا[9].

(1) ينظر: ابن عادل، تفسير ابن عادل المسمى «اللباب في علوم الكتاب»، ج 16، ص 237.
(2) ينظر: ابن عادل، تفسير ابن عادل المسمى «اللباب في علوم الكتاب»، ج 16، ص 237.
(3) ينظر: أبو السعود، تفسير أبي السعود المسمى «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»، ج 7، ص 171.
(4) ابن منظور، لسان العرب، مادة (ن ظ ر).
(5) المصدر نفسه، مادة (ن ظ ر).
(6) ينظر: قطب، في ظلال القرآن، ج 7، ص 82.
(7) ينظر: الآيات (الأنعام 6، يوسف 12، الحج 22، الأعراف 7، الزخرف 43، محمد 47).
(8) ينظر: أبو القاسم، المفردات في غريب القرآن، ص 7.
(9) ينظر: السامرائي، الفعل زمانه وأبنيته، ص 86.

وجاءت أيضًا لفظة «بغتة»، وتعني فجأة، من غير علم من تفجؤه بوقت مفاجأتها إياه يقال منه «بغتّه أبغته بغتة»[1]. وهي مصدر واقع موقع الحال من الفاعل وهي على تأويل بـ (مباغتة)؛ أو الحال من اسم المفعولين «مبغوتين».

ووظف النص القرآني المصدر «بغتة» دون «فجأة» التي لم يستعملها مطلقًا، وجاءت في سياق ذكر الساعة، فالبغتة لم ترد إلا في آيات الوعد والوعيد بوقوع عذاب يوم القيامة، أو عذاب وشيك محقق في الدنيا، وهذا الجزء الذي تستقيه «بغتة» من لفظة «الساعة» «ليس دلالة المفاجأة فحسب، بل دلالة الوعيد فيها»[2]، ولذلك جاء التوظيف القرآني للفظة «البغتة» وحدها في سياق ذكر الساعة، للدلالة على يوم القيامة، وعلى سياقات أخرى تدل على الوعيد والتهديد بوقوع العذاب.

وبما أنّ النحو دراسة الجمل التامة من ناحية العلاقات السياقية[3]، والتركيب غاية من أهم الغايات التي يسعى إليها الباحث في اللغة، ولمَّا كانت الجملة متمثلة في العنصر التركيبي في اللغات، فإن تحليلها إلى عناصرها يستلزم فك هذا التركيب، للوصول إلى السمات العامة والمميزات الخاصة بكل لغة من اللغات؛ فالتحليل وفقًا لذلك هو تجزئة، والتركيب هو جمع هذه الأجزاء[4].

وقد عُدّ التركيب من وسائل إنتاج الدلالة؛ إذ تتولد من التركيب دلالات تستمد وجودها وكيفيتها من ائتلاف الكلمات بعضها ببعض، وإذا ما فَقَدَ التركيب دلالته فسيفقد عندئذ قيمته؛ لأنه وضع لأجلها[5].

وقد تنبه القدماء إلى أهمية علم النحو وقوانينه في دراسة الأساليب الكلامية، يتجلى ذلك في نظرية «النظم»، يقول عبد القاهر الجرجاني: «ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيءٍ منها»[6].

ففي مشهد الصيحة الواحدة، جاء السياق التركيبي موظفًا أسلوب الحصر بـ «إن، وإلا»، وهو أمر يفيد التوكيد ليأتي بأداة «إذا» التي أفادت الفجائية، ولا يخفى ما لهذا التركيب من أثر في ترسيخ هذا الأمر في النفس وتوكيده.

إن أسلوب التوكيد جاء على شكلين أدّيا الغرض المراد منهما وهما:

إن + إلاّ  و  ما + إلاّ

ومن الجدير بالملاحظة أنّ هذين التركيبين قد وُظِفَا في السياق القرآني بشكل مقصود، فجاء التركيب الأول مع لفظة ﴿كانت﴾، وجاء التركيب الثاني مع لفظة ﴿ينظر﴾، على الرغم من أن كلاً من «إن، وما»، دلاّ على النفي في الموقعين كليهما، إلا أنّنا يمكننا القول: «إن مجيء الشكل الأول مع ﴿كانت﴾ عكس حال الفعل الماضي الناقص، الذي أشار بشكل خفي إلى الصيحة المحذوفة لأن تقدير الكلام: ما كانت الصيحة إلا صيحة واحدة»[7]، ففعل الكون الناقص قد ارتبط بحال الفئة الموجه إليها الخطاب؛ فهي فئة ينقصها الوعي والتفكر، وبالتالي لا تحتاج أكثر من صيحة واحدة، أمّا الشكل الثاني ومجيئه مع ﴿ينظر﴾، فقد عكس حالة النفي الصريح والواضح، غير القابل للشك، عن هؤلاء الذين أنكروا مجيء الساعة؛ فهم لا ينتظرونها على وجه الحقيقة، وجاء السياق القرآني لـ «يجعلهم منتظرين وقوعها مع أنهم كانوا قاطعين بعدمها محاكاة لكلامهم»[8].

جاءت الجمل القرآنية في سياق الصيحة الواحدة متكئة على أسلوب الحصر الذي خرج للتوكيد، وكأن المقطع الأول من المشهد ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾، مقطع ثابت ذو طابع تكراري متردد في المشاهد الخمسة، مع الاختلاف الطفيف في تركيب هذه الصيحة، وتكوينها، والمتلقي ينتظر يسمع ما حدث بعد تلك الصيحة؛ لأنّ الإجابات متعددة وصادمة مع المفاجأة التي سوغ لها وجود أداة «الفجأة» «إذا»، وإن لم تتكرر هذه الأداة في بعض الآيات إلا أنّنا نشعر بوجودها ضمنًا عبر المشاهد المفاجئة، التي جاءت بعد مشهد الصيحة

(1) ينظر: الطبري، تفسير الطبري «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»، ج 11، ص 325.
(2) الزيدي، الدلالة الإيحائية لطائفة من ألفاظ الزمان في القرآن، ص 17.
(3) حسان، مناهج البحث في اللغة، ص 229.
(4) ينظر: زوين، منهج البحث اللغوي، ص 72.
(5) ينظر: الزيدي، أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث، ص 74.
(6) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 38.
(7) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه، ج 8، ص 190.
(8) المصدر نفسه، ج 8، ص 210.

الواحدة، إذا ما علمنا أنّ الصيحة هي الصوت الشديد، فقد أطلقت في مواضع في القرآن على صوت الصاعقة. أمّا عن لفظة ﴿واحدة﴾ فجاءت نعتًا يفيد التوكيد؛ لأنّها لو حذفت من سياق الكلام لاكتمل المعنى وتم، ولكن الإرادة الإلهية اقتضت أن تأتي هذه اللفظة لتهوين أمر البعث والحشر عند الله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (يس: الآية 53)، لفظة ﴿جميع﴾ هي على وزن «فعيل» بمعنى «مفعول»، أي مجموعون، فـ «كل» يدل على الإحاطة والشمول، و﴿جميع﴾ يدل على الاجتماع فمعناها حمل على لفظها، وقدم ﴿جميع﴾ لأجل الفواصل، و﴿لدينا﴾ متعلق بـ ﴿مُحْضَرُونَ﴾.

وفي مشاهد (إتيان الساعة بغتة) عدولات كثيرة؛ لأنّ آياتها جاءت على شكل تراكيب ترددية ذات طابع تكراري، فتتكرر العناصر في الأنساق التركيبية على صور متنوعة، وسنركز هنا على ما يبرز جمال المعنى وإصابة الدلالة من خلال ما يأتي:

عدد من الآيات تكرر العنصر ﴿إذا﴾، «ومن أهل العلم من رأى أنّها مجرورة بـ ﴿حتى﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ (الأنعام: 31)، و«حتى» هي حرف جر، ومنهم من رأى أنّها «حرف ابتداء وليست حرف جر»، وحجتهم قول العرب: ضربت القوم حتى زيدًا ضربته. و«حتى» هنا حرف ابتداء وإن جاء ما بعدها منصوبًا، ومنهم من ذهب إلى أنّ «حتى» بمعنى الفاء أي يكون الكلام: فإذا جاءتهم الساعة بغتة»[1]، فالفاء فجائية، ويبدو أنّ حمل «حتى» على أنّها بمعنى الفاء أدل على المعنى السياقي في الآيات، إذ إنّ الساعة تأتيهم بغتة، أي مباغتة، وحمله على ذلك أكثر توافقًا مع سياق الآية.

هذا فضلاً عن «حتى»، التي تعد جسرًا بين أمرين، فالأمر الذي نريد أن نصل إليه هو الغاية، كقول إنسان ما: سرت حتى وصلت المنزل. والمنزل هنا هو غاية السير. والذين كفروا كان كفرهم وتكذيبهم موصلاً إلى الخسران، فمجيء الساعة بغتة ليس هو نهاية المطاف، ولكنه وصول إلى أول الخسران؛ لأن خسرانهم لا ينتهي من فور مجيء الساعة، ولكنه يبدأ لحظة مفاجأة الساعة لهم، فهم يُفاجؤون بوقوع ما كانوا يكذبون به، ويعلمون جيدًا أن ما صنعوه في الدنيا لا يستوجب إلا العذاب[2].

كما ورد أسلوب الحصر في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ﴾ (الزخرف: 66)، و﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم﴾ (محمد: 18)، عن طريق أسلوب الاستفهام، و«هل» جاءت بمعنى «ما» النافية والمعنى: «لا يتذكرون بذكر أهوال الأمم الخالية، ولا بالإخبار بإتيان الساعة وما فيها من عظائم الأهوال إلا إتيان الساعة بغتة نفسها»[3]؛ إذ هم لا يعتبرون بالأخبار الغيبية أي التي لم يروها على الحقيقة، إلا أن تأتيهم فتقع بهم على الحقيقة.

أمّا في آية الزخرف فيلحظ أنّ أسلوب الاستفهام ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (الزخرف: 66)، أفاد هنا النفي بمعنى «ما ينتظر الناس إلا الساعة أن تأتيهم» فجأة، وهم منشغلون في أمور الدنيا منكرين لها.

والحق أنّ أسلوب الاستفهام -في هذا الموضع- الخارج إلى معنى النفي أعطى للأسلوب حقه التأثيري لدى المتلقي، فأوحى النفي في الآيتين بسرعة إتيان العذاب، واختصار الزمن وأنّه محيط بهم لا محالة، فهم في غفلة من أمرهم، ويخرجون من مجلس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلم يعوا ما يقول من شيء ينفعهم ويهديهم، ويُستشعر من النفي في الآيتين «جذبة قوية تخرج الغافلين من الغفلة بعنفٍ كما أخذت بتلابيب مخمور وهزته هزًّا»[4]، فقد جاءت أشراط الساعة مؤذنة بيوم البعث.

**ثالثًا: مستوى التردد الدلالي التصويري**

الدلالة هي النتيجة الطبيعية التي يسعى لتحقيقها المتكلم عن طريق الألفاظ التي يرتبط بعضها ببعض بعلاقات مختلفة: كالصوت، والتركيب، فيتحقق بذلك غرضه في إيصال المعنى، ثم إنّها الهدف المنشود والغاية المرجوة التي تدفع بالمتكلم إلى اختيار أنماط مختلفة من الأساليب

(1) أبو حيان، تفسير أبي حيان المسمى «البحر المحيط»، ج 4، ص 99.

(2) ينظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج 6، ص 3585-3586.

(3) ينظر: البرسوي، تفسير البرسوي المسمى «روح البيان»، ج 8، ص 379.

(4) في ظلال القرآن، ج 24، ص 3295.

بصياغات متعددة، يظن أنّها الأقدر والأصلح من غيرها في إيصال ما يريده إلى السامع أو المتلقي، والدلالة «هي دراسة المعنى، أو العلم الذي يدرس المعنى، أو ذلك الفرع من علم اللغة الذي يتناول نظرية المعنى»[1]، فالدلالة إذًا تصب جل همها في دراسة المعنى وتحديد مفهومه الذي هو «مدلول الكلمة من الأشياء والأفكار والمشاعر، وإنّ اللفظ هو الدلالة الاسمية لذلك المدلول والإشارة الكلامية المستخدمة لبيان ظهوره»[2]، وتعد الدلالة «المدخل الحقيقي لإدراك إعجاز القرآن»[3]؛ وذلك لأنّ الوصول إلى الإعجاز يتطلب فهم اللغة وتذوقها «وليس تذوق اللغة أمرًا عشوائيًّا، ولكنه نابع من فهم تقاليب اللغة الخاصة، ودلالة مفرداتها الحقيقية والمجازية، ووضعها في بناء جملتها، ووسائل ترابطها مع العناصر الأخرى المكونة لبناء الجملة، وقد تتحدد الدلالة الخاصة لبعض الصيغ بوضعها في سياق تركيبي خاص»[4].

ويتحدد البعد الدلالي للّفظة من خلال وضعها في السياق، ويعتمد هذا على علاقتها بما يجاورها من الألفاظ، أي أنّ السياق هو الذي سيلقي بظلاله على تلك اللفظة، ثم يمنحها بعدًا دلاليًّا مستقلاً، ولعلّ من «أنضج التقريرات التي أشار إليها عبد القاهر وبلورها ابن الأثير بالشواهد: هو أنّ الكلمة تتأثر في السياق المنظومة فيه، حسنًا، أو قبحًا»[5].

وقد أقمنا في هذا المستوى على ما جاء في آيات المشهدين من دلالات بلاغية تصويرية، ودلالات فكرية تضمنتها الدلالة الخارجية «الشكل» للوصول إلى المضمون من خلال تحليل الشكل.

جاء في مشهد (الصيحة الواحدة) ألفاظ بصورة الإجمال، ثم جاءت لها استرجاعات في آيات أخرى تضمنت المشهد نفسه على صور متنوعة، لأنّ بنية الإجمال والتفصيل تساهم في رسم صورة واضحة جلية عن طريق المقابلة بين طرفي الإجمال وعناصرها من جهة، والانسجام بين عناصر التفصيل لكل واحد من أنواع الإجمال من جهة أخرى[6].

وأول عناصر الإجمال في هذا المشهد (صيحة واحدة)، «والصيحة كما أسلفنا النفخة الكائنة عند قيام الساعة، وهي عذاب يفجؤهم في الدنيا»[7]، وهي أي «الصيحة» الصوت الشديد الخارج من حلق الإنسان لزجره أو إغاثته، وأطلقت الصيحة في مواضع في القرآن الكريم على صوت الصاعقة، والصيحة هنا تحتمل المجاز، أي ما ينتظرون إلا صعقة أو نفخة عظيمة، والمراد النفخة الأولى التي ينقضي بها نظام الحياة في هذا العالم، والأخرى تنشأ عنها النشأة الثانية، والعذاب هو الأجدر بأن ينتظروه، فهذا الحدث، أو المشهد هو واحد في كل الآيات الواردة في السور (يس، ص، القمر)، إلا أنّنا نرى في كل سياق وردت فيه جاءت بدلالة جديدة، وصورة توضح، وتزيد معلومة جديدة تدفع بذهن المتلقي؛ لاكتشاف مشاهد تتكامل تدريجيًّا من لحظة بدأ صورة (الإجمال الكامل)، فأول ما نراه من الصور هو نتيجة الصيحة الواحدة ليكون الناس الذين وجه إليهم العقاب الشديد ﴿خَامِدُونَ﴾، وسوف نراعي هنا التسلسل في تدرج الآيات كما جاءت في القرآن الكريم لنرى مدى التفصيل وأهميته في صنع الصورة.

تعني لفظة ﴿خَامِدُونَ﴾: «ميتون فشبهوا بالنار رمزًا إلى أنّ الحي كالنار الساطعة، والميت كرمادها»[8]، وقيل أيضًا إنّهم ساكنون لا يتحركون، ولا ينطقون[9].

فالخمود إذًا الانطفاء وانتهاء الحياة فيهم، وبالتالي تحولهم إلى رماد ليست فيه ملامح للحياة والبقاء فأصبحوا خامدين، لا صوت ولا حركة، ولا حياة بعد ذلك العتو، والاستكبار، ومقابلة أشرف الخلق بذلك الكلام القبيح وتجبّرهم عليهم[10].

وبعد هذا المشهد الرهيب ينتقل بنا السياق

(1) عمر، علم الدلالة، ص 11.
(2) عاصي، مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، ص 166.
(3) العوادي، البحث الدلالي عند ابن سينا، ص 71.
(4) حماسة، في بناء الجملة العربية، ص 13، وينظر: طارش، الجملة الفعلية ودلالتها في آيات الآخرة، ص 29– 30.
(5) هلال، جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، ص 308.
(6) ينظر: القرعان، الإجمال والتفصيل في القرآن الكريم (دراسة تحليلية)، ص 23.
(7) الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ص 1258.
(8) البيضاوي، تفسير البيضاوي المسمى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، ج 1، ص 431.
(9) ينظر: ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، ج 1، ص 1959.
(10) ينظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج 1، ص 695.

إلى مشهد آخر يحمل تفصيلات أكثر وهو مشهد ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾، أي يختصمون، ويخصمون من خصمه، والمعنى أنّها تبغتهم وهم في أمنهم وغفلتهم عنها، لا يخطرونها ببالهم، مشتغلين بخصوماتهم في متاجرهم، ومعاملاتهم وسائر ما يتخاصمون فيه، ويتشاجرون، ويخصم بعضهم بعضًا. وقيل: تأخذهم وهم عند أنفسهم يخصمون في الحجة في أنّهم لا يبعثون، فلا يستطيعون أن يوصلوا في شيء من أمورهم توصية، ولا يقدرون على الرجوع إلى منازلهم وأهاليهم، بل يموتون بحيث تفجؤهم الصيحة[1].

إنّ هذا المشهد انتقل بنا إلى شرح حال هؤلاء الناس الذين غرتّهم الدنيا بما فيها من لهو وخصام، فالدلالة التي أفادتها البنى التفصيلية بإضافاتها واسترجاعاتها، هي دلالة ترهيبية وتذكيرية في آن واحد، ولو رأينا المشهد الأخير من سورة يس (53) لوجدنا الآية القرآنية ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ تحولت إلى دلالة تفصيلية مكانية، وزمانية، بعد ما مرّ بنا الدلالة التفصيلية الحالية في ﴿خَامِدُونَ﴾، و﴿يَخِصِّمُونَ﴾. (كما هو موضح في الشكل رقم (1))

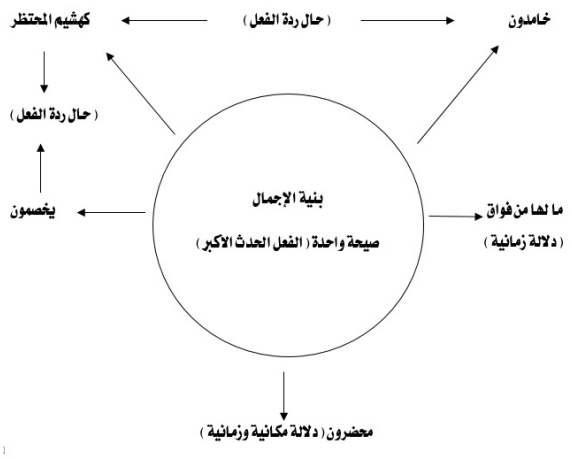


شكل رقم (1) (في الدلالة الصورية، الحالية + المكانية + الزمانية)

جاء التوكيد الحاصل في ﴿هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا﴾ مع لفظة ﴿مُحْضَرُونَ﴾ لتعكس لنا مشهد إحضار هؤلاء الكفّار في زمان ومكان واحد، لا يكاد ينفلت منهم فريق، والإحضار كما سبق ذكره للحساب والجزاء والعقاب[2]، ولا يخفى مدى وضوح القدرة، والقوة الإلهية في لفظة ﴿مُحْضَرُونَ﴾، فهم يخضعون للإحضار الإجباري سواء شاؤوا أم أبوا، ولو جاءت لفظة «يحضرون» لأصبح الأمر فيه نوع من الاختيار، وهذه الصورة السريعة الخاطفة التي تحمل دلالات المفاجئة والشدة تحيلنا إلى صورة تفصيلية أخرى في سورة (ص): ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ (آية 15)، وهي صور تحمل أبعادًا ودلالات زمنية، ولكن الزمن غير المحدد بوقت بعينه، بل مدة معروفة وغير محددة، «وتعني إذا جاء وقت هذه الصيحة لم تستأخر أو تستقدم ساعة، أي هذا القدر من الزمان الذي قُدّر بساعة رجوع الدّر إلى ضرع الدابة، والمعنى المراد هو كونها نفخة أو صيحة واحدة لا تثني ولا تتردد»[3].

إنّ بنية الإجمال والتفصيل تساهم في رسم صورة واضحة جلية عن طريق الانسجام بين عناصر التفصيل، وهذه البنية تقوم على التواصل فيما بين عناصرها، لتكشف عن أسلوب متميز في تفجير المعنى من خلال حركة النسق اللغوي في الصياغة القرآنية.

وأخيرًا نصل إلى المشهد الأخير في الصيحات ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ (القمر: 31)، صورت الدلالة القرآنية حال الكافرين الذين تم إحضارهم، وهم منشغلون في خصوماتهم، «فأصبحوا بعقاب الله وعذابه كأنهم الشجر اليابس الذي يحتوي على الشوك»[4]، فإذا ما صار قديمًا وتساقط وسارت عليه الحيوانات من أغنام وخيول وأبقار فإنه يصبح متكسرًا متناثرًا لا يملك قوامًا واحدًا ولا فائدة.

من هذا المشهد المهين أراد الله عز وجل أن يبين حال هؤلاء، فنحن أمام تفصيلات متنوعة تدور حول إجمال واحد «الصيحة الواحدة»، وتفصيل يحمل فائدة ودلالة أخرى مقصودة، فقوله: ﴿خَامِدُونَ﴾، ﴿يَخِصِّمُونَ﴾، ﴿هَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾، بيّن حال الكفار وأوضاعهم عند مجيء الصيحة، أمّا لفظة ﴿مُحْضَرُونَ﴾ فقد عكست

(1) ينظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج 4، ص 23.

(2) ينظر: ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 23، ص 12.

(3) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج 4، ص 78.

(4) ينظر: الطبري، تفسير الطبري «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»، ج 22، ص 595.

واقعًا مكانيًّا وزمانيًّا واحدًا. أما قوله تعالى: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ (ص: 15) فقد أخذ دلالة زمنية مقدرة بين إفاقة المريض من مرضه، أو بين حلبتي الحالب ورضعة الراضع؛ ومن ثم قيست هذه الصرخة بوقت وزمن معلومين، وهي ذات أبعاد ودلالات زمنية، ولكن الزمن غير المحدد بوقت بعينه، بل مدة معروفة غير محددة.

أمّا المشهد الثاني (إتيان الساعة بغتة) فقد وردت ألفاظه بصورة الإجمال، ثم جاءت استرجاعات لها في آيات أخر تضمنت المشهد نفسه لكن بصور متنوعة، من ذلك قوله «بغتة»، فكان الأخذ لهم بصورة مباغتة، ولم يفصّل في آية الأنعام بعد ذكره نوع الأخذ للناس فجاء التفصيل فيها من خلال بقية آيات المشهد؛ منها قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا﴾ (الأنعام: 31)، وهو تفصيل لمشهد واقعي أراده السياق القرآني؛ لأنّ في مجيء الساعة بغتة نرى الكفار نادمين تملؤهم الحسرة، وهذا ما أسميناه في الشكل رقم (2) اللاحق بمشهد (خط الأمر الواقع)، ودلالة هذه الآية «وُكِسَ الذين كذبوا بلقاء الله ببيعهم منازلهم من الجنة بمنازل من اشتروا منازله من أهل الجنة من النار، فإذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا إذا عاينوا ما باعوا وما اشتروا، وتبينوا خسارة صفقة بيعهم..»[1]، فجاء جوابهم ﴿يَا حَسْرَتَنَا..﴾، فهذا الجواب ارتبط بصورة بيانية توضيحية وردت في سياق قرآني آخر، وهي ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ (الأنعام: 31)، فحمل الأثقال على الظهور وما ينتج عنه من ألم وبطء في الحركة ما هو إلا جزء يسير من الذين يحملون ذنوبهم في قلوبهم.

ونجد أيضًا تجسيمًا واضحًا للفظة «الساعة»، فوصفت (بالمجيء) تأكيدًا ولتكون الصورة أكثر استقرارًا في الأذهان، ومثلها الآيات التي وردت فيها الأفعال (تأتيهم)، فجسمت الساعة بالإتيان وذلك يخرج إلى غاية قرآنية هي التهويل، والتخويف.

فالتجسيم هو «ضرب من التصوير الفني»[2]، والتصوير هو التعبير «بالصورة المحسّة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية مجسمة مرئية»[3].

أما التفصيل الثاني فقد جاء في سورة «يوسف»: ﴿تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (آية 107)، أي يكون هذا الانقلاب والزلزال والدك للأرض والجبال في وقت لا يشعرون بمجيئه كي يستطيعوا الاستعداد والتهيؤ لأمر الله وقيام الساعة، إذًا يكون ذلك الجواب لمن سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الساعة في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾، فأتى الجواب مصورًا إياها بجسم ثقيل جدًّا: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾ (الأعراف: 187)، وهنا دلالات تشبيهية بلاغية، فكأن الساعة سفينة جارية في البحار لا يُعرف أيان إرساؤها واستقرارها، والرسو هو الثبات والإقرار، وهذا أسميناه في الشكل رقم (2) خط المفاجأة.

المشهد الآخر من مشاهد تفصيلات إتيان الساعة بغتة قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ (الحج: 55)، ففي الآية تجسيمان: أحدهما «الإتيان» للساعة، والآخر الإتيان للعذاب المصاحب لقيام الساعة، وهذا العذاب الواقع لا محالة في يوم يكون عقيمًا، أي أنّه لا يوم سيأتي بعده، وكأن «كل يوم يلد ما بعده من الأيام فما لا يوم بعده يكون عقيمًا»[4]، كأنه قال أو يأتيهم عذابها، وكل ذلك جاء لغاية منشودة هي التهويل والترويع للموعظة والتذكير؛ كي يستعدوا لهذا اليوم العقيم الذي إذا جاء ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ (الحج: 2)، و﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ (المزمل: 17)، ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ هاتين الآيتين تُعدّان استرجاعًا لما أجمله السياق القرآني في قوله تعالى: ﴿تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ (الحج: 55)، فضلاً عن استرجاعات لا حصر لها تفصّل وتفسّر ما سيحدث في ذلك اليوم المهول.

وفي مشهد سورة الزخرف جاءت لفظة ﴿يَنظُرُونَ﴾: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (الزخرف: 66)، بمعنى ينتظرون، أي ما ينتظرون شيئًا إلا إتيان الساعة فجأة وهم غافلون عنها، وفي ذلك تهكم بهم؛

(1) الطبري، تفسير الطبري «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»، ج 16 ص 291.
(2) قطب، التصوير الفني في القرآن، ص 34.
(3) المصدر نفسه، ص 34.
(4) الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج 13، ص 97.

حيث جعل إتيان الساعة كالمنتظر الذي لا بدّ من وقوعه. ولما جاز اجتماع الفجأة والشعور وجب أن يفيد ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾، لعدم إغناء الأول عنه فلا استدراك، وقيل: يجوز أن يراد بـ ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ الإثبات؛ لأنّ الكلام وارد على الإنكار، كأنه قيل: هل يزعمون أنّها تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون؛ أي لا يكون ذلك، بل تأتيهم وهم فطنون. وفيه ما فيه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تقوم الساعة والرجلان يحلبان النعجة، والرجلان يطويان الثوب، ثم قرأ عليه الصلاة والسلام: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (الزخرف: 66)[1].

أما في سورة (محمد): ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ (آية 18)، وجدنا أنّ المعنى أو الدلالة السابقة تكاد تقترب من هذا المشهد المفصّل «فتأتيهم الساعة بغتة وأنّهم لا يتذكرون بذكر أحوال الأمم الخالية، ولا بالإخبار بإتيان الساعة وما فيها من عظائم الأمور، وما ينتظرون للتذكر إلا إتيان الساعة بغتة، فقد جاء أشراطها تعليلاً لمفاجأتها لا لإتيانها مطلقًا، على معنى أنّه لم يبق من الأمور الموجبة للتذكر أمر مرتقب ينظرونه سوى إتيان الساعة نفسها إذا جاء أشراطها، فلم يرفعوا لها رأسًا، ولم يعدوها من مبادئ إتيانها، فيكون إتيانها بطريق المفاجأة لا محالة، فـ»الأشراط» جمع شرط، وهو العلامة المراد بها مبعثه عليه السلام وأمته آخر الأمم، فبمبعثه يدل على قرب انتهاء الزمان»[2].

إنّ بنية التفصيل هذه جاءت خاتمة لما تقدم، ويمكن القول: إنّ هذه الآية مع آيات سورتي «الأعراف، والحج»، جاءت على خط متوازٍ واحد أسميناه مشهد «اقتراب الوعد الحق والتسويف والمماطلة بها»، وفي سورتي «يوسف، والزخرف» جاءتا على خط مشهد «المفاجأة»، وفي سورة «الأنعام» جاءت على مشهد الأمر الواقع، كما هو مبين في الشكل رقم (2).

فجملة التفصيلات السابقة الذكر تشير إلى ترابط معجز في دلالة المشاهد التي تكمل بعضها البعض وتمد القارئ بكم من الصور المعبرة التي تجعل من السياق القرآني سياقًا متقن البناء.

مما تقدم في المشهدين السابقين -موضوع الدراسة- وجدنا تضمين السياق القرآني لدلالات فكرية ونفسية واجتماعية، خرجت كلها إلى غرض أساسي هو التذكير بالآخرة والإيمان بها.

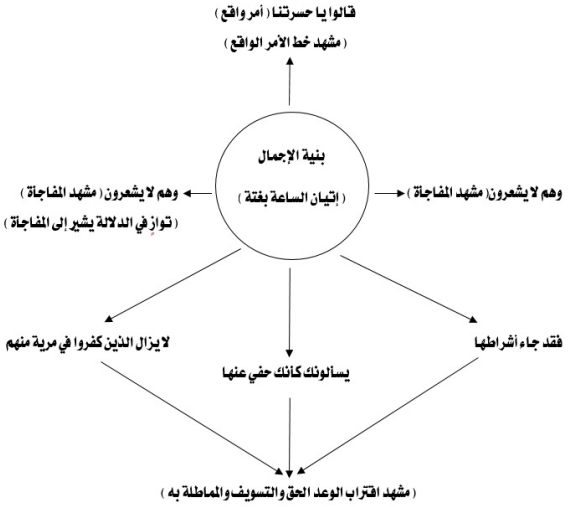


شكل رقم (2): في الدلالة الصورية لمشهد إتيان الساعة بغتة

**نتائج البحث**

بعد الدراسة المستفيضة للمشهدين (الصيحة الواحدة وإتيان الساعة بغتة) خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أهمها:

1. جاء التكرار القرآني في مشاهد البحث المنتخبة بوظيفة تعضيد الفكرة، ودفع دلالة المشاهد إلى الوضوح والتجلي.
2. تضافرت الأصوات اللغوية لتحكي قصة اليوم الجلل، فجاء نسج الأصوات بشكل دقيق ومقصود.
3. عبرت العدولات التركيبية عن دلالات دقيقة في التعبير أغنت المشهدين وأظهرتهما بشكل مميز.
4. كانت التراكيب النحوية في المشهدين من أهم مُنتِجات الدلالة؛ إذ تولدت منها دلالات تخدم المعنى المراد.
5. جاءت في الدراسة ألفاظ بصورة الإجمال، ثم جاءت لها استرجاعات في آيات أخرى تضمنت المشاهد نفسها على صورة متنوعة.
6. إنّ أهم دلالة جاءت بها البنى التفصيلية في المشهدين السابقين هي دلالة ترهيبية، وأخرى تذكيرية في آن واحد.

(1) المصدر نفسه، ج 18، ص 393.

(2) ينظر: البرسوي، تفسير البرسوي المسمى «روح البيان»، ج 8، ص 379.

7. إن بنية الإجمال والتفصيل أسهمت في رسم صورة واضحة جلية عن طريق الانسجام بين العناصر.
8. جاء سرد المشهدين من زوايا مختلفة متنوعة؛ حيث لا نشعر بوجود تكرار فيهما، مما يبطل مزاعم البعض بوجود التكرار المحض في النص القرآني.

**المراجع**

ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي. تحقيق: الحوفي، أحمد، وطبانة، بدوي. 1981م/ 1403هـ. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. الطبعة الثانية، دار الرفاعي، الرياض، المملكة العربية السعودية.

ابن جزي، محمد بن أحمد. د.ت. التسهيل لعلوم التنزيل. بدون رقم الطبعة، بدون بيانات الناشر وبلد النشر.

ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي الدمشقي الحنبلي. تحقيق: عبدالموجود، عادل أحمد، ومعوض، علي محمد. شارك في تحقيقه: حسن، محمد سعد رمضان، وحرب، محمد المتولي الدسوقي. 1419هـ/ 1998م. تفسير ابن عادل المسمى «اللباب في علوم الكتاب». الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ابن عاشور، محمد الطاهر. 1997م. تفسير التحرير والتنوير. بدون رقم الطبعة، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري. د.ت. لسان العرب. بدون رقم الطبعة، دار صادر، بيروت، لبنان.

أبو السعود، محمد بن محمد العمادي الحنفي. د.ت. تفسير أبي السعود المسمى «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم». دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي. 1328هـ. تفسير أبي حيان المسمى «البحر المحيط». الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، مصر.

إسماعيل، عز الدين. 1986م. الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنة. الطبعة الثالثة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق.

الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي، 1985م/ 1405هـ. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. الطبعة الرابعة، الطباعة المنيرية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

أنيس، إبراهيم. 1999م. الأصوات اللغوية. الطبعة الثالثة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر.

البرسوي، إسماعيل حقي بن مصطفى الحنفي الإستانبولي. د.ت. تفسير البرسوي المسمى «روح البيان». بدون رقم الطبعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

البيضاوي، القاضي ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي. د.ت. تفسير البيضاوي المسمى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل». بدون رقم الطبعة، بدون بيانات الناشر وبلد النشر.

الجرجاني، عبدالقاهر أبو بكر بن عبدالرحمن بن محمد النحوي. تحقيق: رضا، محمد رشيد. 1381هـ. دلائل الإعجاز في علم المعاني. بدون رقم الطبعة، بدون بيانات الناشر، القاهرة، مصر.

حسان، تمام. 1979م/ 1400هـ. مناهج البحث في اللغة. بدون رقم الطبعة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب.

الحسناوي، محمد. 1986م/ 1406هـ. الفاصلة في القرآن. الطبعة الثانية، دار عمار، عمان، الأردن.

الحلة، محمود أحمد. د.ت. لغة القرآن في جزء عم. بدون رقم الطبعة، بدون بيانات الناشر وبلد النشر.

حماسة، محمد. 2002م. في بناء الجملة العربية. الطبعة الأولى، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر.

الخالدي، صلاح. 1988م. نظرية التصوير الفني عند سيد قطب. بدون رقم الطبعة، دار الشهاب، باتنة، الجزائر.

الدرويش، محيي الدين. د.ت. إعراب القرآن وبيانه. بدون رقم الطبعة، دار الإرشاد، دمشق، سوريا.

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل. تحقيق: كيلاني، محمد سيد. د.ت. المفردات في غريب القرآن. بدون رقم الطبعة، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

الزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر بن عبدالله الشافعي. تحقيق: إبراهيم، محمد أبو الفضل. 1975م. البرهان في علوم القرآن. الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، مصر.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي. تحقيق: المهدي، عبدالرزاق. 1997م. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان.

زوين، علي. 1986م. منهج البحث اللغوي. الطبعة الأولى، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، بغداد، العراق.

الزيدي، توفيق. 1984م. أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث. بدون رقم الطبعة، الدار العربية للكتاب، بدون بلد النشر.

الزيدي، كاصد. 1421هـ. الدلالة الإيحائية لطائفة من ألفاظ الزمان في القرآن. مجلة الدراسات اللغوية، الرياض، المملكة العربية السعودية، (محرم – ربيع الأول)، (أبريل – يونيو)، مج (2)، ع (1)، ص ص 10–46.

الزيدي، كاصد. 1978م. فقه اللغة العربية. بدون رقم الطبعة، بدون بيانات الناشر وبلد النشر.

السامرائي، إبراهيم. 1986م. الفعل زمانه وأبنيته. الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

السعدي، عبدالرحمن بن ناصر. تحقيق: اللويحق، عبدالرحمن بن معلا. 1420هـ. تفسير ابن سعدي المسمى «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان». الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

شرشر، محمد حسن. 1988م. البناء الصوتي في البيان القرآني. الطبعة الأولى، مطبعة المحمدية، القاهرة، مصر.

الشعراوي، محمد متولي. د.ت. تفسير الشعراوي. بدون رقم الطبعة، مطابع دار أخبار اليوم، مدينة السادس من أكتوبر، الجيزة، مصر.

الشوكاني، محمد بن علي بن محمد. اعتنى به وراجع أصوله: الغوش، يوسف. 1428هـ/ 2007م. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. الطبعة الرابعة، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

الصافي، محمود بن عبدالرحيم. 1418هـ. الجدول في إعراب القرآن. الطبعة الرابعة، دار الرشيد مؤسسة الإيمان، دمشق، سوريا.

طارش، مجيد. 1997م. الجملة الفعلية ودلالتها في آيات الآخرة. رسالة ماجستير، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، بغداد، العراق.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. تحقيق: شاكر، أحمد محمد. 2000م. تفسير الطبري «جامع البيان عن تأويل آي القرآن». الطبعة الأولى. مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

عاصي، ميشال. 1974م. مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ. بدون رقم الطبعة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

عبدالرحمن، عائشة. 1987م. الإعجاز البياني للقرآن. الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، مصر.

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله. تحقيق: قميحة، مفيد. 1984م/ 1404هـ. كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر). الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

عمر، أحمد مختار. 1982م/ 1402هـ. علم الدلالة. الطبعة الأولى، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت.

العمري، محمد. 1999م. الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة العربية. الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب.

العوادي، مشكور. د.ت. البحث الدلالي عند ابن سينا. رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، بغداد، العراق.

القرعان، فايز. 1994م/ 1414هـ. الإجمال والتفصيل في القرآن الكريم (دراسة تحليلية). مجلة أبحاث اليرموك، مجلد (12)، ع (1)، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

القرعان، فايز. 2004م. دراسات أسلوبية في النص القرآني. بدون رقم الطبعة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن.

قطب، سيد. 1956م. التصوير الفني في القرآن. بدون رقم الطبعة، دار المعارف، القاهرة، مصر.

قطب، سيد. 1971م/ 1391هـ. في ظلال القرآن. الطبعة السابعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

الميداني، عبدالرحمن. 2009م/ 1430هـ. قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل. الطبعة الرابعة، دار القلم، دمشق، سوريا.

ناجي، مجيد عبدالحميد. 1404هـ/ 1984م. الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية. الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب. د.ت. نهاية الأرب في فنون الأدب. بدون رقم الطبعة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، مصر.

هلال، ماهر مهدي. 1980م. جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب. بدون رقم الطبعة، دار الحرية للطباعة، بغداد، العراق.

# Structural Synthetic Transformations in Quranic Scenes A Study in Style and Semantics

**May Mohsen Alhlfee and Murad Rafiq Albayyari**

Department of Arabic, Faculty of Arts, King Faisal University

## ABSTRACT

This study is attempting to reveal the significance of synthetic structures of two scenes from the Holy Quran: The Single Blast Scene, and The Sudden Start of the Judgment Day Scene.

The study will be within the stylistic levels of the acoustic semantic frequency, the frequency of compositional and synthetic levels, and the frequency level of semantic photogrammetry. To reach the purposes of duplications in the compositions of those chosen expressions in these two scenes, and the statement of the linguistic and structural methods used by the Quranic context to clarify the semantics of the desired composition.

The main finding is that synthetic structure of these two scenes is the main semantic generator.

**Key Words:** An'am, Haj, Qamar, Yasiin, Yusuf, Zukhruf.